الشعر الصوفي

عند ابن الفارض وابن عربي

بقلم الدكتور

على جميل مهنا

الأستاذ المشارك بكلية الآداب

جامعة الأزهر ـ غزة

الشـــعر الصوفى

لا شك أن للشعر أهمية خاصة فى حيـاة العرب منـذ الجاهلية ، وقد كانت القبـائل تفـاخر بعضها بعضا بكثرة شعرائها ، وكانت القبيلة اذا نبــغ فيها شاعر أتتها الوفود من مختلف القبائل مهنئة بولادة هذا الشاعر •

وقد ظل هذا الاهتمام البالغ بالشعر فى مختلف العصور لمـــا له من آثار كبيرة على الفرد والمجتمع على حد ســواء • وكانت كل جماعة تتخـذ من الشعر وسـيلة لنشر مبـادئها والدفاع عن منهجها •

فليس غريبــا أن يهتم الصوفية بالشــعر ويجعلوه من أقوى الوسائل التى ينفثون من خلالها أشواقهم ، ويصورون من خلالها أحوالهم ومقاماتهم • والتغنى بالشعر من أقوى الوسائل التىتحرك وجدانهم الدينى ، وتمس شغاف قلوبهم، وتهـز أعطـافهم ، وتنقلهم من حال الى حال • وأخبـارهم حافلة بالروايات والقصص التى تؤيد ذلك ، فكم من صوفى سمع أبيـاتا من الشعر الدينى أو الصوفى فاستجاب لهـا وتجاوب معها •

والشــعر يشـكل معلما واضـحا من معـالم الحـركة الصوفية ، اذ انــه من أقوى الأمور والوســائل التى حملت فكرهم وصورت حيـاتهم ورسمت معـالم طريقهم ، فـكان متنفسا للشاعر الصوفى من ناحية ، ومن ناحية أخرى كتابا يقـرأه الآخرون ليعرفوا من خـلاله الصوفيـة وأحوالهم • وبعبارة أخرى لولا شعراء الصوفية لمـا عرفنا عن الصوفية

الا النزر اليسير ، ولولا الشعر الصوفى لم تكن هذه الحركة لتـأخذ هذا الاهتمام الكبير من الباحثين والدارسين قرونا متعـددة ٠

وقـد عرفت الحركة الصـوفية عـددا من الشـعراء المجيدين ٠ من أهمهم : ابن الفارض وابن عربى ٠

★ ★ ★

أولا : ابن الفارض

هو « سلطان العاشقين » اسمه عمر بن علي ، حموى الأصل ، مصرى المولد والدار والوفاة ، ولد عام ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م وتوفى فى القاهرة سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥ م — قدم أبوه من حماة الى مصر فسكنها ، وصار يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدى الحكام ، ثم ولى نيابة الحكم ، فغلب عليه التلقيب بالفارض ٠

سمات شعره :

كانت شاعرية ابن الفارض سلسة فياضة وقد تدفقت هذه الشاعرية أثناء وجوده فى مكة ، وقد خلف وراءه ديوانا من الشعر المتميز فى لونه وصيغته ، فشعر ابن الفارض يعبر عن شخصية قائله ، وعن المنهج الذى سلكه فى حياته ، وقد اهتم بــه سبطه « على » فجمعه وقدم له وعرف بــه ، ثم أقبل بعض المهتمين بشعره بشرح هذا الديوان كحسن البورينى المتوفى سنة ١٠٢٤ هـ / ١٦١٥ م الذى لم يعط الشعر الصوفى حقه من الشرح والتأويل ، فقد انصب شرحه على ظاهر اللفظ ، ولم يتأول شيئا ٠ وأما عبد الغنى النابلسى فقد شرحه على طريقة الصوفية ٠ ولقد طبع الشرحان والديوان فى مرسيليا بفرنسا فى مجلد واحد ، عدد صفحاته ٥٧٤ صفحة ، وكان ذلك فى سنة ١٨٥٣ ، ثم أعيد طبعها حديثا فى مصر ٠

وتعود شهرة ديوان ابن الفارض الى شخصيته ، وتقاه ،

وورعه ، والأخبار والروايات التى ذكرت عنه •

فابن خلكان يقول عنه : « له ديوان شعر لطيف ، وأسلوبه فيه رائق ظريف »[1] • والصلاح الصفدى يقول : « كان سيد شعراء عصره ، وشعره صنع للغاية »[2] •

وان شعر ابن الفارض من الناحية الفنية جيد بشكل عام ، وان اعتراه بعض الضعف الذى ساد عصره ، فلم يسلم الرجل من الآفات التى أصابت الأدب والشعر بوجه خاص فى ذلك العصر • الا أن ابن الفارض قد سلمت له جملة من القصائد ، هى فى القمة من حيث الصياغة الفنية ، والصور البيانية ، وتعبيرها تعبيرا صادقا عن غرام الصوفية ، وشوقهم ، وحبهم للذات الالهية برموزهم التى تعارفوا عليها ، واشتهرت عنهم وأصبحت سمة واضحة من سماتهم التى تميزهم وتميز شعرهم عن شعر غيرهم •

وقد غلبت على شعر ابن الفارض ثلاثة فنون نبغ فيها ، وعد فيها من الفحول الذين برزوا فى هذا المجال ، وهى شعر الخمر ، والحنين الى الحجاز ، والصبابة ورقة الهوى •

وان سبق ابن الفارض أئمة الشعراء لهذه الفنون ، فانه قد نبغ فيها حتى وصل الى مرتبة لا يمكن للدارسين معها اغفاله اذا ما ذكر شعر الخمر أو الحنين أو رقة الصبابة •

---

(١) وفيات الأعيان ٣/١٢٦ •

(٢) الوافى بالوفيات ٥/٢٤٠ •

ومن جيد نظمه قصيدته التى تمثل قوة شاعريته وسيطرته على زمام الشعر وقدرته على احكامه ونسجه ، والقصيدة التى تظهر فيها نزعته الصوفية الممتلئة بالشوق والحنين ، والتى يستخدم فيها تلك الرموز الصوفية التى تعبر عن شوقه وصبابته مع جمال فى التعبير ، وروعة فى استخدام الصور البيانية :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة
سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
لها البدر كأس وهى شمس يديرها
هلال وكم يبدو اذا مزجت نجم
ولولا شذاها ما اهتديت لحانها
ولولا سناها ما تصورها الوهم
ولم يبق منها الدهر غير حشاشة (٣)
كأن خفاها فى صدور النهى كتم (٤)

فهذه الأبيات تتحدث عن الخمر والكأس والنديم والساقى ، وقصائده الأخرى فى الغزل والشوق تتحدث عن وصف الجمال ، وشدة العشق ، والهيام ورقة الصبابة ، فهى فى ظاهرها غزل بالآدمى كألوان الغزل الشائعة الا أن غزل ابن الفارض وحديثه عن الخمر والكأس مغاير لذلك ، فهو رجل صوفى فى غاية التقوى والورع ، وفى أرقى درجات

(٣) حشاشة : بقية الروح .
(٤) الديوان ص ١٤٠ .

العفة والتقى ، فالمعنى الذى يقصده ابن الفارض ويرمى اليه هو معنى باطنى وهو حب الله والهيام به ، والتشوق الى لقياه ، والسكر بذكره ، وتشكره وعبادته .

ولكى تتضح هذه الفكرة أكثر فأكثر ، فلنتأمل بعض شعره الرمزى من نحو قوله فى قصيدته القوية فى مبناها ومعناها والتى يقول فيها :

زدنى بفرط الحب فيك تحيرا
وارحم حشى بلظى هواك تسعرا
واذا سألتك أن أراك حقيقة
فاسمح ، ولاتجعل جوابى: لن ترى(٥)
يا قلب ! أنت وعدتنى فى حبهم
صبرا ، فحاذر أن تضيق وتضجرا
ان الغرام هو الحياة ، فمت به
فحقك أن تموت وتعذرا
قل للذين تقدموا قبلى ، ومن
بعدى ، ومن أضحى لأشجانى يرى :
عنى خذوا ، وبى اقتدوا ، ولى اسمعوا
وتحدثوا بصبابتى بين الورى
ولقد خلوت مع الحبيب ، وبيننا
سر أرق من النسيم ، اذا سرى

---

(٥) قال البورينى : ان فى هذا البيت تلميحا الى قصة موسى حيث طلب من ربه الرؤية ، فأجيب : بلن ترانى .. « الديوان ص ١٦٩ » .

وأباح طرفى نظرة أملتها فغدوت معروفا، وكنت منكرا

فدهشت بين جماله وجلاله

وغدا لسان الحال عنى مخبرا

فأدر لحاظك فى محاسن وجهه

تلق جميع الحسن فيه مصورا

لو أن كل الحسن يكمل صوره

ورآه ، كان مهللا ، ومكبرا

ومن قصائده الجيدة والمشهورة فى الغزل الصوفى قصيدته التى مطلعها :

قلبى يحدثنى بأنك متلفى

روحى فداك عرفت أم لم تعرف [٦]

ومن أبرز قصائده التى شغف بها المتصوفة « التائية الكبرى » التى تحدث فيها عن معراجه الروحى ، وهى مصوغة فى قالب شعرى رمزى دقيق بديع ٠

يتحدث ابن الفارض فى تائبته الكبرى ، بلسان الصوفى الذى وصل الى مقام (الاتحاد) ، فيذكر عهده الأول بالحب الالهى ، وما عاناه فيه من شدائد وعقبات ، لأنه قاصر عن درجة الكمال ، ويشرح كيف سعى الى تفريج الهم عن نفسه ، وبث ذلك الحب الى المحبوب اذ يقول :

ولم أحك ، فى حبك حالى تبرما

بها لاضطراب ، بل لتنفيس كربتى [٧]

---

(٦) انظر القصيدة فى الديوان ص ١٥١ ٠

(٧) تبرما : مللا ٠ التنفيس : التفريج ٠ كربتى : شدتى ٠

ويحسن اظهـار التجـلد للعـدى ،
ويقبـح غيـر العجز عنـد الأحبـة
ويمنعنى شكواى حسـن تبصرى ،
ولو أشك للأعـداء ما بى لأشكت [٨]
وعقبى اصطبارى ، فى هواك ، حميدة
عليـك ، ولـكن عنك غير حميدة [٩]
وما حل بى من محنة ، فهو منحـة
وقد سلمت ، من حل عقد ، عزيمتى [١٠]
وكل أذى فى الحب منـك ، اذا بدا
جعلت له شكرى ما كان شكيتى [١١]

ثم يؤكد لحبيبه أن حبه لا يتغير فهو ثابت على مر الأيام فيقـول :

ولى نفس حر لو بذلت لهـا ، على
تسليك ، ما فوق المنى ما تسلت [١٢]
ولو أبعدت بالصـد والهجر والقلى
وقطع الرجا ، عن خلتى ، ماتخلت [١٣]

---

(٨) أشكت : أزالت الشكوى .

(٩) صبر عليه : تحمل أذاه .

(١٠) عزيمتى : الارادة المؤكدة .

(١١) شكيتى : شكواى . التائية الكبرى ص ٥٠ .

(١٢) أراد بتسليك : التسلى عنـك .

(١٣) القلى : البغض . الخلة : الحبيبة . ما تخلت : ما تركت .

وعن مذهبى فى الحب ما لى مذهب
ان ملت يوما عنه فارقت ملتى [١٤]

ثم يشير ابن الفارض الى قوله تعالى : (واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى) [١٥] .

وتلك الآية يسميها الصوفية « آيـة العهـد » ، لأن الله تعالى قد صرح فيها ـ كما يعتقدون ـ بأنه أخذ على بنى آدم عهد المحبة بينه وبينهم . ويقول ابن الفارض : انه أخذ ذلك العهد قبل أن تتلبس نفسه بطينة جسده ، وانه لم يحدث بذلك أبدا ويقسم أغلظ القسم بصفات جمال المحبوب وجلاله . انه يقول فى ذلك قولا لا رجعة فيه :

ومحـكم عهـد لم يخامـره بيننـا
تخيـل نسخ ، وهو خيـر أليـة [١٦]
وأخـذك ميثـاق الولا حيث لم أبن
بمظهر لبس النفس ، فى فيىء طينتى [١٧]
لأنت منى قـلبى ، وغـاية بغيتى ،
وأقصى مرادى ، واختيارى وخبرتى [١٨]

---

(١٤) أى ليس لى منصرف عن مذهبى فى الحب . (التـائية الكبرى ص ٥٢) .

(١٥) سـورة الأعراف آية رقم ١٧٢ .

(١٦) أى قسما بالعهـد الموثوق به أخذته على .

(١٧) أى حيث لم تطهر نفس فى ظلال جسدى .

(١٨) خيرتى : تفضيلى ، واختيـارى اياك .

وهنـا يجيبه المحبـوب بأن دعواه الحب محض ادعاء ورياء ، وأن رؤيته المحبوب ليس الا رؤيته لنفسه ، وحبه اياه ليس الا حبه لنفسه ، وأن الحب الخالص ليس الا الفناء فى المحبوب ، يقول على لسان المحبوب :

حليف غـرام أنت ، لـكن بنفسه ،
وأبقاك وصفا منـك ، بعض أذلتى (١٩)

فلم تهـونى ما لم تـكن فى فانيـا
ولم تفن ما لم تجتلى فيك صورتى (٢٠)

هو الحب ان لم تقض لم تقض مأربا
من الحب، فاختر ذاك، أو خل خلتى (٢١)

ثم يصف بعدئذ الفنـاء ، وهو الحال التى تتجرد فيها النفس عن رغبـاتها ، وميولها ، وبواعثهـا بحيث تتعطـل ارادتهـا وتموت ، فاذا ماتت الارادة أصبحت النفس طوع الارادة الالهية ، تحركها كيف تشاء ، وهذا هو حب الله لها ، ولكن المحب والمحبوب شىء واحد هو جوهر النفس وباطنها ، وهكذا نجد العابد ، والمعبود ، والعاشق ، والمعشوق متحدين فى شخصية واحدة :

كلانا مصل واحـد ، سأسجد الى
حقيقتـه بالجمـع ، فى كل سـجدة

---

(١٩) حليف : معاهد . لكن بنفسه : اراد ان غرامه بنفسه . أذلتى : براهينى .

(٢٠) تجتـلى : تنظر .

(٢١) لم تقض الأولى : لم تمت ، الثـانية : لم تحصـل على مآربك : أى مطالبـك .

وما كان لى صلى سواى ، ولم تكن
صلاتى لغيرى ، فى أداء كل ركعة(٢٢)

وابن الفارض يستعمل لغة أصحاب وحدة الوجود ، فى وصفه الاتحاد بالذات الالهية المحبوبة ، حيث يقول :

فوصفى اذ لم تدع باثنين ، وصفها
وهيئتها ، اذ واحد نحن ، هيئتى
فان دعيت كنت المجيب ، وان أكن
منادى أجابت من دعانى ، ولبت
وان نطقت كنت المناجى ، كذلك ان
قصصت حديثا ، انما هى قصت
فقد رفعت تاء المخاطب بيننا
وفى رفعها عن فرقة الفرق رفعتى (٢٣)

(٢٢) الديوان ص ٦١ .

(٢٣) تحليل القصيدة على هذا الوجه مأخوذ من كتابه « فى التصوف الاسلامى وتاريخه » من ص ١٢٠ - ١٢٤ .

ثانيا : ابن عربى

هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمى ، من ولد عبد الله حاتم ، أخى عدى بن حاتم ، يكنى أبا بكر ، ويلقب بمحيى الدين ، ويعرف بالحاتمى ، وبابن عربى .

ولد فى مرسية من بلاد الأندلس سنة ٥٦٠ هـ/ ١١٦٥م ، ونشأ فى أسرة محافظة ، كثيرة التدين ، وكانت أسرته من الأسر الموسرة ، كثيرة الغنى ، ثم اتفق أن انتقلت الى اشبيلية ، فانتقل معها ، وفيها بدأت دراسته ثم تابعها فى قرطبة وفى مرسية أيضا . واهتم بدراسة الفقه والحديث وسائر العلوم الدينية ، وفى قرطبة التقى وهو حدث بابن رشد الفيلسوف ، وكان يومئذ قاضى قرطبة ، فتلقن منه شيئا كثيرا .

وبعد أن استكمل علومه تاقت نفسه لزيارة بلاد المشرق وزيارة البيت الحرام وقبر الرسول - ﷺ - فانتقل الى المشرق حاجا ، ولم يعد بعدها الى الأندلس ، وتعددت رحلاته وكثر تنقله بين بلاد المشرق ، وقد دخل مصر وأقام بالحجاز مدة ، وزار بغداد والموصل وبلاد الروم . وتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م ، وقبره معروف فيها .

وهب ابن عربى حياته للعلم والبحث والدراسة ، فقد أنفق جل وقته فى القراءة والتأليف ، فقد خلف وراءه ثروة علمية ضخمة ، فمؤلفاته تقارب الأربعمائة ، من أشهرها : « الفتوحات المكية » ، ومحاضرة الأبرار ومسامرة الأخبار »

و « ديوان شعر » ، و « فصوص الحكم » ، و « مفاتيح الغيب » ، و « التعريفات » ، و « شجرة الكون » (٢٤) ، و « فتح الذخائر والأغلاق شرح ترجمان الأشواق » وغيرها .

والذين ترجموا لابن عربى أغفلوا أشياء كثيرة عن حياته الأولى لاسيما فى فتوته وشبابه ، فلا زالت هناك صفحات مجهولة لم تتحدث عنها مصادر دراسة ابن عربى ، اما لأنها عديمة الأهمية أو لأنها لم تعثر على تفصيلات عن حياته التى قضاها فى بلاد الأندلس قبل أن يحضر الى المشرق . فكل الذين ترجموا له ذكروا طرفا من نشأته العلمية وشغفه بالعلم وأنه قد عاش حياة ناعمة مع أسرته الثرية .

ويجمع الدارسون على أن ابن عربى كان مرهف الحس والذوق ، صافى النفس ، عفيفا دينا ، مخلصا فى عبادته ، متوقد القريحة ، وقد انعكست صفاته هذه على آثاره لاسيما على أشعاره وأفكاره وخواطره وشرحه لديوانه .

وتروى الأخبار أن ابن عربى وفد على الحجاز وهو فى الثامنة والثلاثين ، وكان آنذاك يقاسى مشقة الانتقال من مكان الى مكان ، ومن عهد الى عهد ، فاتصل حبله برجل من أهل العلم فى مكة يدعى « مكين الدين أبا شجاع زاهر الأصفهانى » . وكان لذلك الرجل بنية عفيفة ، دينة تضرب

---

(٢٤) الأعلام ٧ : ١٧٠ - مطبعة كونستا توماس ، القاهرة سنة ١٩٥٤ م .

فى فنـون العلم بباع طويل ، أعجب بها ، وأسر بحلاوة حديثها ، وبراعة منطقها وحسن بيانها ورقة ظرفها . ولكننا مهما وصفناها ، ووصفنا تلك العلاقة وذلك الاعجاب ، فلن نبلغ مبلغ الرجل وهو يصف بقلمه الرشيق جمـال خلقها ، وكمال خلقها ، وكريم سجاياها ، حيث يقول : « كان لهـذا الشيخ - رضى الله عنه - بنت عذراء ، طفيلة هيفـاء تقيد النظر ، وتزين المحاضر ، وتحيـر الناظر ، تسمى بالنظام ، وتلقب بعين الشمس والبهـاء ، من العـابدات العالمـات ، السايحات الزاهدات ، شيخة الحرمين، وتربية البلد الأمين، الأعظم بلا مين » (٢٥) ، ساحرة الطرف ، عراقية الظرف ، ان أسهبت أتبعت، وان أوجزت أعجزت، وان أفصحت أوضحت، ان نطقت خرس قس بن ساعدة ، وان كرمت خنس جمع من زائدة ، وان وفت قصر السموأل خطاه ، وأغرى بظهر الغدر فامتطـاه ، ولولا النفـوس الضـعيفة السريعة الأمراض ، السيئة الأغراض لأخـذت فى شرح ما أودع الله تعـالى فى خلقها من الحسـن ، وفى خلقهـا الذى هو روضـة المزن . شمس بين العلماء ، بستان بين الأدباء ، حقـة ، مختومة ، واسطة عقد منظومة ، يتيمة دهرها ، كريمة عصرها، سابغة الكرم ، عالية الهمم ، سيدة والديها ، شريفة ناديها ، مسكنها الجياد (٢٦) وبيتها من العين السواد ، ومن الصدر الفؤاد .

---

(٢٥) المين : الكذب .

(٢٦) جيـاد : حى بمكة مجاور للحرم الشريف .

أشرقت بها تهامة ، وفتح الروض لمجاورتها أكمامة ، فنمت أعراف المعارف بما تحملت من الرقائق واللطائف ، علمها عملها ، عليها مسحة ملك وهمة ملك ، فراعينا في صحبتها كريم ذاتها ، مع انضاف الى ذلك من صحبة العمة والوالد ، فقلدناها من نظمنا في هذا الكتاب أحسن القلائد ، بلسان النسيب الرائق ، وعبارات الغزل اللائق ، ولم أبلغ في ذلك بعد ما تجده النفس ، ويثيره الأنس من كريم ودها ، وقديم عهدها ، ولطافة معناها ، وطهارة مغناها ، اذ هى السؤال والمأمول ، والعذراء البتول ، فأعربت عن نفس تواقة ، ونبهت على ما عندنا من العلاقة ، اهتماما بالأمر القديم ، ايثارا لمجلسها الكريم ، فكل اسم أذكره في هذا الجزء فعنها أكنى ، وكل دار أنديها فدارها أعني .

وهذه العبارات صريحة الدلالة على أن ابن عربى قد أعجب بهذه الفتاة أيما اعجاب الا أننا لا نشك فى نبل مقصده وطهارته ، وبراءته من وضيع الأغراض ، لأن ابن عربى يتحدث حديث الرجل العفيف ، وهو صادق فيما يقول ، ولكن ذلك العفاف هو الدرجة الأولى بين هوى الأرض وهوى السماء ، وهو بداية العزوف عن المتعة الحسية ، والاقبال على المتعة الروحية ، وطليعة الايمان بأن للحب غاية غير نعيم الحواس » (٢٧) .

---

(٢٧) زكى مبارك ـ التصوف الاسلامى ١٦٤/١ ، مطبعة الرسالة ـ القاهرة سنة ١٩٣٦ م ، ومقدمة ديوان « ترجمان الأشواق » ص ١٦ (مطبعة الجيل ـ بيروت سنة ١٩٦١ م) .

وآية عفة ابن عربى الذى قص علينا قصة الطفيلة المعشوقة « نظام » أنه هو نفسه يقول لنا : « ولم أزل فيما نظمته فى هذا الجزء على الايماء الى الواردات الالهية ، والتنزلات الروحانية ، والمناسبات العلوية جريا على طريقتنا المثلى ، فان الآخرة خير لنا من الأولى ، ولعلمها - رضى الله عنها - بما اليه أشير ، ولا أنبأك مثل خبير ، والله يعصم قارىء هذا الديوان من سبق خاطره الى ما لا يليق بالنفوس الأبية ، والهمم العلية المتعلقة بالأمور السماوية ، آمين ، بعزة من لا رب غيره ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل »[٢٨] من هذا كله يتبين لنا أن ابن عربى قد عرف فتاة فى حياته فأعجب بجمالها وكمال علمها وحسن أدبها الا أن قلبه وروحه كانا معلقين بحب أسمى وأرقى ، وأنقى وأبقى ألا وهو الحب السماوى الذى شغف به طيلة حياته .

شعره وشاعريته :

كان ابن‌عربى يتميز بقريحة متوقدة ، وشاعرية متدفقة، وديباجة مشرقة ، وأسلوب رائق فى معظم شعره وكتاباته ، وهو صاحب قلم رشيق يصنف الأشياء فيجيد وصفها ، ويحكم وصفها بعبارات أنيقة ، وألفاظ مختارة رشيقة ، ونجده يجنح أحيانا الى السجع فى بعض كتاباته ، فيذكرنا بأسلوب الهمزانى فى رسائله ، وأسلوب الحريرى فى

---

(٢٨) المصدر السابق ١/١٦٤ ، وترجمان الأشواق .

مقاماته · ولسنا الآن بصدد الحديث عن كتابات ابن عربى وتقييمهـا ·

وأما شعره الذى أثر عنه فانه كثير ، مبثوث بين طيات مصنفاته ، ومؤلفاته ، علاوة على ديوانه « ترجمان الأشواق » فالشعر الذى ضمنه هذا الديوان قد عنى به عنـاية كبيرة ، فكان أجود شعره الذى نظمه من الناحية الفنية ، لأن شعره الآخر كان يأتى ضمن تضاعيف مصنفاته ، فلم يعن به كثيرا ، فلعله كان ينظمه فى أوقات لم يكن مهيئا لنظم الشعر ، لهـذا فان كثيرا من مقطعاته التى وردت فى تلك المصـنفات كانت ضعيفة من الناحية الفنية ، اذ لا تعدو فى جملتها مقطوعات شعرية عويصة المعنى ، غامضة الفكرة ، غريبة الأسلوب ، فمن أراد فهمها فلابد لـه من اتعـاب الفـكر وكد الخاطر ، واعمال النظر ، وطول التـأمل حتى يصل الى المراد منهـا واستخلاص المعنى الذى يرمى اليه · وليس هذا الحكم على كل شعره أو مقتطفاته المبثوثة فى مصنفاته ·

وأما ديوانه « ترجمان الأشواق » ، فهو فى جملته قمة فى الاشراق والوضـوح ، وقـد احتوى على مجمـوعة من القصائد الجيـدة ·

وشعر ابن عربى يدل على رهافة حسه وشدة ذوقـه ، وصفاء نفسه وتوجد قريحته وعباراته المشرفة تدل على أنـه قـد عنى بها ، واختار ألفـاظها ، فمعجمه اللغوى واضـح الدلالة على أن الرجل كان عالمـا باللغـة وأسرارها خبيرا بضروب الشعر ومسالكه ·

وقد افتن ابن عربي في هذا الديوان بقصائد الغزل، ووصف شدة الشوق ، وحرقة الوجد ، وحرارة اللقاء ، ومرارة البعد ، وقسوة الهجر ، الى غير ذلك من المعاني الغزلية التي تدل في ظاهرها على غزل انساني رقيق رفيع المستوى . الا أن ابن عربي خشي أن ينصرف ذهن قارئ شعره الى المعنى الظاهري ، وينصرف عن المعنى المراد منه، فقام هو نفسه بشرح هذا الديوان ، فصرف ألفاظه الى المعاني التي أرادها هو ، وهي المعاني الباطنية التي قصدها ، فالمعاني التي تتجلى للقارئ لأول وهلة ليست هي المقصودة ، بل انها تخفي في طياتها تلك المعاني المقصودة ، وقد وضح ذلك في مقدمة شرحه لديوانه .

من أجود قصائده وأكثرها شهرة قصيدته التي يقول في أولها :

مرضي من مريضة الأجفان
عللاني بذكرها عللاني
هفت الورق بالرياض وناحت
شجو هذا الحمام مما شجاني
بأبي طفلة لعوب تهادى
من بنات الخدود بين الغواني
طلعت في العيان شمسا فلما
أفلت أشرقت بأفق جنابي

فيبدو ظاهر المعاني في هذه الأبيات أنه موجه الى فتاة انسانية أحبها الشاعر ، شأنه في ذلك شأن العشاق الحسيين

أو العشاق العـذريين · ولـكننا نجـد ابن عربى لا يتركنا ننساب فى توهمنا ، بل يأخذ بيدنا الى ما يريد فى قصيدته هذه وغيرها ، فيشرح مقاصده بنفسه فيقول :

مرضى من مريضـــة الأجفـــان
عـــللانى بذكرهـــا عـــللانى

المرض : الميـــل ، يقول : لمـا مالت عيـون الحضرة المطلوبة للعارفين من جانب الحق سبحانه بالرحمة والتلطيف الينا ، أمالت قلبى بالتعشق اليها ، فانها لمـا تنزهت جلالا ، وعلت قـدرا ، وسمت جبـروتا وكبرا ، لم يمكن أن تعـرف فتحب ، فتنزلت بالألطاف الخفية الى قلوب العارفين ··· الخ · ويسـتمر فى شرح البيت ثم ينتقـل الى شرح البيت الثانى ، فالثالث الى آخر القصيدة ، وهكذا يفعل بالقصائد الأخرى

ويرى بعض الدارسين أن هذا الشرح قد حمل كثيرا من التعمد والاعتساف · ولـكننا لسنا مع هؤلاء الدارسين فى رأيهم — وان كنا نعذرهم فى رأيهم هذا — لأنهم لم يخوضوا تجربة التصوف ، ولم يمروا بالأحوال التى مر بها الشاعر الصوفى الذى يعانى من حرارة الوجد وشدة الشوق وحلاوة اللقاء ، فاذا ما أراد أن يعبر عن معاناته وأحواله لجأ الى صور الغزل الحسى ليقرب لنا الصور التى يمر بها ، ولاعجب فى ذلك ، فالله عز وجـل عنـدما أراد أن يقرب لعباده مثـل نوره ، شبه نوره بالمشكاة والنبراس (٢٩) ، وعندما أراد أن

(٢٩) سورة النـور آية رقم ٣٥ ·

يقــرب لأذهانهم بعض ألوان النعيم فى الجنـــة ذكر الخمــر والكؤوس والغلمان والحور العين [٣٠] . هذا ويروى بعض الدارسين أن البداية التى انطلق منها ابن عربى كانت بداية انسانية ، ثم ما لبثت هذه الناحية العاطفية الانسانية التى كان موضوع الحب فيها الفتاة المكية أن استحالت الى حالة صوفية الهية ، وكان موضوع الحب فيها هو الذات العلية .

ولــكننا نرى غيــر هــذا الرأى ، فالحب الالهى عنــد ابن عربى كان عنده منــذ البــداية ، فيــؤثره على كل شيء ويقــدمه على كل أمر ، وأما وصفه للفتــاة فلا يعــدو كونه اعجابا بفتاة عابدة زاهدة ، دق خلقها ، وكملت شمائلها ، وليس شرطا أن يكون توقد الغزل دليلا على تجربة انسانية ، فما دام هؤلاء لم يجدوا وسيلة للتعبير عن أحوالهم الا الغزل وصوره المختلفة ، فلا غرابة أن نجد لديهم غزلا رقيقا ، فعلى قدر وجد الشاعر وشوقه تأتى درجة غزله ، وأيضا هناك من شــعراء الصوفية من جاء شعرهم فى غاية العذوبة والرقة مع أن أخبــارهم تقطع بأنهم لم يعرفوا فى حيــاتهم الغــزل الحسى ، ولم يتعرفوا على فتيات تلهمهم وترهق حسهم وترفق غزلهم كابن الفارض وغيره .

وقــد أحسن ابن عــربى صــنعا عنــدما شرح ديوانه « ترجمان الأشواق » بنفسه ، فوضح لنا المعانى المرادة من شعره ، وعرفنا كيفية شرح مثــل هذه الأشعار التى تنطوى على معان ظاهرة ومعان خفية باطنة ، وبين لنا كيف انطوت

---

(٣٠) مطالعات فى الشــعر المملوكى والعثمانى - بكرى شيخ امين - ص ٤٤٩ .

الكنوز فى رموز ، وكيف أمكنه أن يجعل الألفاظ والعبارات الغزلية أو الخمرية أدوات تعبير عن عاطفة انسانية تسامت بصاحبها أو تسامى بها صاحبها الى أن جعلها عاطفة الهية، المحبوبة فيها هى الذات العلية • وهذه براعة تميز بها ابن عربى عن غيره من الشعراء ، وليس معنى هذا أنه قد وضع منهاجا لشرح الأشعار الصوفية فيصبح (السبيل ممهدا) أمام الشارحين من بعده •

ولكن ابن عربى أراد من شرحه لديوانه لفت الأنظار الى الوجهة التى ينبغى أن تتصرف اليها معانى شعره ، وحتى لا ينساق القارىء وراء المعانى الظاهرية التى توحى بها • وقد روى هو نفسه فى « شرح ترجمان الأشواق » حكاية عن بعض أشعاره ، اذ سمعته جارية وهو يطوف بالبيت ينشد بعض أبيات له ، فعاتبته على قوله لهذه الأبيات الغزلية ، وهو العابد الزاهد المتصوف ، لأنها فهمت من أبياته المعانى الظاهرة لها ، ولكنه بين لها المعانى المرادة من هذه الأبيات والحكاية على لسانه :

« كنت أطوف ذات ليلة بالبيت ، فطاب وقتى ، وهزنى حال كنت أعرفه ، فخرجت من البلاط من أجل الناس وطفت على الرمل ، فحضرتنى أبيات فأنشدتها أسمع بها نفسى ومن يلينى ، فلم أشعر الا بضربة بين كتفى بيد ألين من الخز ، فالتفت فاذا بجارية من بنات الروم ، لم أر أحسن منها وجها ، ولا أعذب منطقا ، ولا أرق حاشية ، ولا ألطف معنى ، ولا أدق

اشارة ، ولا أطرف محاورة منها ، قد فاقت أهل زمانها ظرفا وأدبا وجمالا ومعرفة ، فقالت :

ليت شعرى هل دورا   أى قلب ملكوا

فقالت : عجبا منك ، وأنت عارف زمانك تقول مثل هذا .. ألى كل مملوك معروفا ؟ وهل يصح الملك الا من بعد المعرفة ، وتمنى الشعور يؤذن بعدمها ، والطريق لسان صدق ، فكيف يجوز لمثلك أن يقول مثل هذا ؟ قل يا سيدى فماذا قلت بعده ؟ فقلت :

وفؤادى لو درى   أى شعب سلكوا

فقالت : يا سيدى ، الشعب الذى بين الشغاف والفؤاد هو المانع له من المعرفة ، فكيف يتمنى ملك ما لا يمكن الوصول اليه الا بعد المعرفة ؟ والطريق لسان صدق ، فكيف يجوز لمثلك أن يقول مثل هذا يا سيدى ؟ فماذا قلت بعده ؟ فقلت :

أتراهم سلموا   أم تراهم هلكوا

فقالت : أما هم فسلموا ، ولكن اسأل عنك ، فينبغى أن تسأل نفسك هل سلمت أم هلكت يا سيدى ؟ فما قلت بعده ؟ فقلت :

حار أرباب الهوى   فى الهوى وارتبكوا

فصاحت وقالت : ياعجبا ، كيف يبقى للمشغوف فضلة يحار بها ، والهوى شأنه التعميم ، يخدر الحواس ، ويذهب العقول ، ويدهش الخواطر ، ويذهب بصاحبه فى الذاهبين .

«فأين الحيرة وما هنا باق فيحار ، والطريق لسان صدق ، والتجوز من مثلك غير لائق ؟ » .

ويعلل ابن عربى سبب موقفها بأنها فهمت المعانى الظاهرة للأبيات ، ويرى أن التناقص البادى يزول اذا ما جاوزت ظاهر الأمر الى باطنه ، ثم يأخذ ابن عربى فى شرح هذه الأبيات نفسها شرحا باطنيا موفيا ، ليبين كيف ينبغى أن تفهم ، وكأنه أراد أن يرسم أمام قرائه طريقة الفهم الصحيح عند قراءة ديوانه .

ومن جيد شعره قصيدته التى يقول فيها :

بان العزاء وبان الصبر اذ بانوا
بانوا وهم فى سويد القلب سكان
سألتهم عن مقبل الركب قيل لنا
مقبلهم حيث فاح الشيح والبان
فقلت للريح : سيرى والحقى بهم
فانهم عند ظل الأيك قطان
وبلغيهم سلاما من أخى شجن
فى قلبه من فراق القوم أشجان [٣١]

ومن مشهور شعره الجيد قوله :

سلام على سلمى ومن حل بالحمى
وحق لمثلى ، رقة ، أن يسلما

---

(٣١) ترجمان الأشواق ص ٣١ .

وماذا عليهـــا أن تـــرد تحيـــة
عليـنا ، ولـكن لا احتكام على الدمى
سروا وظلام الليـل أرخى سـدوله
فقلت لها : حسـبا غريبا منيعـا
أحاطت به الأشواق صونا وأرصدت
لـه راشقات النبـل أيان يممـا
فأبدت ثنـايـاها ، وأومض بـارق
فلم أدر من شـق الحنـادس منهمـا
وقالت : أما يـكفيه أنى بقلبـه
يشاهدنى فى كل وقت ، أما ، أما (٣٢)

ولعمرى أن ابن عـربى من شـعراء العربية الـكبار ، وأحد فحولها المعدودين ، فديوانه ترجمان الأشواق ينم عن شاعرية ثرية لا ينضب معينها ، ولا يجف ماؤها ، وقد تميز ابن عربى برصـانة الأسلوب ، ورشاقة الألفـاظ ، وحلاوة العبـارة ، واصابة التشبيه ، وبراعة فى الخيـال رغم أنه عاش فى فتـرة غلب عليها الضعف والتهـالك وراء زخرفة العبارة والاغراق في المحسنات البديعية ، الا أن ابن عربى كان يغوص وراء المعـانى ويلبسها حللا جميلة ، لهـذا جاء شعره فى مستوى رفيع يضاهى به فحول الشعراء فى صدر العصر العبـاسى أو فحول الشعر فى الأدب الأندلسى ، فهو سيد شعراء زمانه دون منازع ، وان شرحه للديوان يوضح

---

(٣٢) انظر ترجمان الأشواق ص ٨٢ ـ دار المنـار ـ ١٩٦٦ م .

أنه كان يمتلك ناصية البيـان ، فهو قد تميز بالموهبتين معا : موهبة قرض الشعر ، وموهبة الكتابة والنثر .

وكان ابن عربى من المتصوفة الذين يؤمنون بوحدة الوجود ، أى أن الله وحده هو الوجود الحقيقى الظاهر فى كل مظهر الخلق ، المتجلى فى صورة الصوفى عند فنائه عن نفسه ، فى حال وجده [٣٣] سمع سائلا فى السوق يكدى الناس ، وهو يقول فى جناب الحق تعالى : يا من هو الكل والكل اليه ، فطاب على قوله وأنشد :

سمعت من ليس يدرى ما يقول به
قد قال فى الله ، ان الكل هو اليه
ان الاله بعين الحق أنطقه
بما هو الأمر فيما قال فيه عليه [٣٤]

خصائص الشعر الصوفى :

من خلال هذا العرض الموجز لحياة ابن الفارض وابن عربى ، وتعرفنا على نماذج تصور شعر كل منهما ، يتبين لنا أن الشعر الصوفى يصور أحوال الوجد التى يمر بها المتصوفة ، فالشاعر ينظم قصائده بايحاء من هذه الأحوال، ولهذا السبب تأتى بعض القصائد غامضة وبعيدة فى رموزها وارشاداتها .

وقصائد ابن الفارض وابن عربى تتميز بجودة النظم

(٣٣) فى التصوف الاسلامى (نيكلسون) ص ٧١ - ٧٣ .

(٣٤) ديوان ابن عربى ص ٣٢٤ .

واحكامه ، وجماله ورقة الأسلوب وأناقته • وقصائد ابن الفارض فى الطبقة الأولى منه ، وقصائد ابن عربى فيها الشىء الكثير من الجمال ، بالرغم مما فى أسلوبها من الغموض (٣٥) •

وتتميز قصائد ابن الفارض وابن عربى بجودة الوصف واحكام الرصف ، ومن خصائص هذه القصائد أوزانها وأنغامها وما صيغت فيه من الأساليب الرمزية ، كل هذه عوامل تساعد على انتقال أحوال الوجد التى يشعر بها الشاعر الصوفى الى سامعيه •

ويتميز ابن الفارض بطول النفس ، ويتميز كل منهما بوفرة الشعر وقوة الشاعرية •

ومن أبرز الخصائص التى تميز بها الشعر الصوفى الرمز الذى يعتبر معلما واضحا فى شعرهم • فالشعر الصوفى يكتنفه الغموض فى كثير من الأحيان وذلك لما فيه من رمز واشارات غير مفهومة • وقد نجم هذا الرمز عن الحالات النفسية التى تنشأ عن الأحوال والمواجيد ، وتقصر مادة الألفاظ عن تصويرها تصويرا دقيقا كل الدقة ، فيعمد الصوفى الى الرمز والاشارة ليعبر عن فيضه الباطنى ، ويبتدع لنفسه مصطلحات خاصة لا يدركها الا الصوفى •

ولقد أكد القشيرى هذا فقال : « وهذه الطائفة

---

(٣٥) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٩٦ • د• احمد بدوى ـ دار النهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة ـ القاهرة •

يستعملون ألفاظا بينهم قصدوا بهـا الكشف عن معـانيهم لأنفسهم ، والاجمـال والتسـتر على ما بينهم فى طريقتهم ، لتكون معانى ألفاظهم مستبهمة على الأجانب غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع فى أهلها » (٣٦) ٠

وتتمثل مظاهر الرمزية فى الشعر الصوفى فى المبـالغة والايغـال فى الاستعارات والكنايات واستخدام ألفاظ المحبوبة واستخدام أسماء الأماكن المقدسة وحولها ٠

والرمز عند القوم يتمثل فى التعبير عن معان أو حالات معينة تدل فى ظاهرها على أشـياء قريبة يدركها القـارىء العادى ، وتحمل فى باطنها معنى آخر بعيـدا لا يصل اليـه الا الدارس المتعمق ، أو المتخصص لفهم بواطن النصوص ، والصوفى الحق ٠

ويتمثل أيضـا فى الاغراق فى الاستعارة ، والابتعـاد فى مدلول الكناية ، والاستعانة بمعطيات التورية ٠

والرمز من أهم السمات التى تميز الشعر الصوفى عن غيره من الأغراض ، اذ أن هـذا الشعر فى معظم الأحوال لو خلا من الرمز والاشارة البعيدة لانصرف الى أمور حسية ومعان مبتـذلة وغزل صريح ٠ فالرمز من لوازم المتصوفة ومن أخص خصائصهم « وهو يختلف اختلافا بينـا واضحا عن الطريقة الرمزية فى الشعر الحديث ، وذلك لأن الرمزية

---

(٣٦) الرسالة القشيرية ص ١٦ ٠

فى الشعر الحديث تنشد الموسيقية ، ولا تحفل بالفكرة أو المظهر » [٣٧] . فمفهوم الرمز فى الشعر الصوفى يختلف عن مفهوم الرمز فى الشعر الحديث . ومن هنا يقع فى الخطأ من ينقد الشعر الصوفى وفقا لمفهوم الرمزية عند الشعراء والنقاد المحدثين ، كما فعل ايليا حاوى فى دراسته والسريالية حيث يقول : « وأما الشعراء الصوفيون فقد راجعنا شعرهم على المذهب الرمزى فلم يكد تقع له على أثر، وانما هؤلاء كانوا فى معظمهم من الأدباء الانحطاطيين يقولون المعانى القديمة الهرمة فى الحب والرحيل ، واللوعة والخمرة ويستنبطون لها التعاويذ الأخرى التى توهم بجدتها ، وهى عجوز عجفاء متهرمة درداء » [٣٨] ويقول أيضا : « الا أن الشعر الصوفى الذى كان مقدرا أن يبدع ذلك الابداع ويردم هوة الروح فى الشعر العربى ، ان ذلك الشعر انسحب على أذيال المعانى القديمة بتحريفها وتخريفها وتثقيفها ، حتى كأن سمات الانحطاط الفعلى بادرت عليه وسرت فى مفاصله وأوصاله » [٣٩] .

وهناك خاصية أخرى تميز بها الشعر الصوفى ، وهذه الخاصية نلمحها واضحة جلية وهى التغنى بالجمال والحديث عن الحب فى معظم قصائدهم . فكثيرا ما يشبه

---

(٣٧) مطالعات فى الشعر المملوكى والعثمانى ص ٢٦٠ .

(٣٨) الرمزية والسريالية ـ ايليا حاوى ـ ص ١٤٩ ـ دار الثقافة ـ لبنان ١٩٨٠ م .

(٣٩) المرجع السابق .

الشعر الصوفى الشعر الغزلى فى التغنى بالجمال ، والحنين اليه ، وفى كثير من الأحيان لانستطيع التمييز بين قصيدتين: احداهما يتغنى صاحبها بالحب الانسانى والأخرى بالحب الالهى .

وقد استخدم الصوفية لغة الحب ، ورموز المحبين ، لأنهم لم يجدوا وسيلة أقوم ولا أقدر فى التعبير عن مواجدهم وأحوالهم من هذه الطريقة وذلك المنهاج لأن الصوفى يدع قلبه يفيض بالمعانى المتعلقة بالوحدة الوجودية الشاملة ، وبذلك الحب القاهر الذى هو الأساس الحقيقى القائم عليه كل شى (٤٠) ذلك أن الصوفى يرى الحق وهو الله أصل كل وجوده والحق كما يصوره شعراء الصوفية هو الجمال الأزلى المطلق ، العشوق على الحقيقة فى كل جميل ، بل ان ما يسمى بالحب الانسانى ليس على الحقيقة الا حبا الهيا ، وبرزخا موصلا اليه ، والنفس الانسانية تشتاق الى الاتصال بالحق ، وتحن للرجوع اليه ، وهذا الشوق الذى يدفعنا الى الفناء عن ذاتها هو وحدة السبيل الى عودتها الى وطنها القديم ، والحب غايته الاتحاد ، وقد اعتبر الصوفية الحب أساس الأديان جميعها ، وفى ذلك يقول محيى الدين ابن عربى :

لقد صار قلبى قابلا كل صورة
فمرعى لغزلان ، ودير لرهبان

---

(٤٠) فى التصوف الاسلامى وتاريخه (نيكلسون) ص ٦٠ - القاهرة - ١٣٦٦ هـ / ١٩٣٥ م .

وبيت لأوثـان ، وكعبـة طـائف
وألواح تـوراة ، ومصحف قـرآن
أديـن بـدين الحب أنى توجهـت
ركائبـه ، فالحب دينى وايمـانى

وحديث ابن عربى عن وحـدة الحب والاتحـاد يقودنا لمسألة كثر الحديث فيها وعنها ، لذا أجدنى مضطرا للتعرض اليها لأنها تمس شعر ابن الفـارض وابن عربى وفكرهما ، وهـذه المسـألة هى مسـألة : الحلول والاتحـاد ووحـدة الوجود .

الحلول والاتحـاد ووحدة الوجود :

هذه الألفـاظ الثلاثة ترد فى كتب الصوفية ، وفى كتب خصومهم ، وسنحاول فى هذه العجالة أن نتعرف على معانى هذه الألفاظ والحكم عليها .

أما الحـلول فهو الذى يقابل كلمة Incanation فى اللغات الأوروبيـة ، وهو التجسيد . أو بمعنى أن الله جل جلاله قد حل متجسدا فى الذات البشرية ، أو هو الصـلة بين الرب الذى هو « اللاهوت » والعبد الذى هو « الناسوت » .

أما الاتحـاد فهو الذى يقابل كلمة Unificatio[n] فى اللغات الأوروبية ، ويعنى امتزاج الذات الالهيـة بالذات الانسانية حتى يصيرا شيئا واحدا . أو هو الاستهلاك بالكامل فى الله ، والفناء عما سواه .

والفرق بين الحلول والاتحـاد كون الاله يهبط فيتحـد

بالمخلوق فى الأول ، وذوبان الفرد فى حب الاله الى درجة يشعر الانسان أنه أصبح مع الاله شيئا واحدا فى الثانى ، وتكون النتيجة فى كليهما : الحلول والاتحاد واحدة - على وجه التقريب - (٤١) .

أما وحدة الوجود فتعنى فكرة الكثرة فى الوحدة المطلقة ، أو تعنى : التغاير فى الوحدة . وبشكل أوضح نقول : ان وحدة الوجود يراد بها أن الحقيقة الوجودية واحدة ، وأن الكثرة الظاهرة مظاهر وتعيينات فيها : أى أن « الخلق » الظاهر هو « الحق » الباطن . ويمكن أن نمثل المظهرين بالثلج الذى هو عين الماء وليس شيئا غيره ، بمعنى أن الخالق والمخلوق حقيقة واحدة اختلفت فى المظهر، وهى واحدة فى الجوهر (٤٢) .

واننا اذا قارنا هذه المضامين الثلاثة بجوهر الدين نجدها كفرا صريحا والحادا لا شك فيه ، وانحرافا عن جوهر التصوف ومبادئه . فليس هناك من قال : ان الله حل فى الانسان أو ان الانسان اتحد بالله ، أو امتزج الاله فى جميع أجزاء الكون ، وليس هناك من يقول : ان المخلوق عين الخالق ، وكل الموجودات المحسوسة والمشاهدة هى ذات الله وعينه .

وأكثر من هذا ، فان عباد الأوثان لم يتجرأوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله ، بل قالوا : « ما نعبدهم الا ليقربونا

---

(٤١) انظر الصوفية فى الاسلام (نيكلسون) ص ١٣٨ .

(٤٢) انظر « التصوف الاسلامى » البير نصرى - ص ٢٠ .

الي الله زلفى » [٤٣] . فما دامت هذه الأمور كفـرا ، وما دام التصوف أخلاقا وعبادة ، وتمسكا بالشريعة ظاهرا وباطنا ، والتفانى فى عبادته ، فكيف نوفق بين هذه المتناقضات ؟.

ويبدو لنـا أن المسألة واضحة لا لبس فيها وأنها أيسر مما يتصور ، فالحركة الصوفية منذ نشأتها وخلال مراحلها التالية ، كانت واضحة فى مبادئها وغاياتها ، فالمتصوفة قد أقبلوا على الله بقلوب صافية وأخلصوا له العبادة ، وعقدوا العزم على أن ينـالوا رضا الله عز وجل ومحبتـه ، فخلعوا عنهم ثياب الدنيا ، وزهدوا فى مباهجها ، وتجافت جنوبهم على المضاجع ، وطبقوا الشريعة قولا وفعلا ، وقاموا بفعل ما أمرهم الله به ، واجتنبوا ما نهاهم عنه ، ولكنهم لم يكتفوا بذلك ، فضـاعفوا من عبـادتهم ، وتقـربوا اليـه قـدر استطاعتهم .

ولو رجعنـا الى أئمة الصوفية وروادها الأوائل لعلمنا أنهم قـد حـددوا معـالم طريقهم وأنهم كانوا واضحين فى منهجهم وطريقهم ، فهـذا الجديد يقول : « طريقنـا مضبوط بالكتاب والسـنة ، ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم ينفعه لا يقتدى به » .

وهذا سهل بن عبد الله التسترى يقول : « أصولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى والاقتداء بسنة رسول الله ـ ﷺ ـ ، وأكل الحـلال ، وكف الأذى ، واجتنـاب الآثام ،

---

(٤٣) سورة الزمـر الآية رقم ٣ .

والتـوبة ، وأداء الحقوق » (٤٤) فالمتصـوفة كانوا من أول أمرهم واضـحين كل الوضوح ، وهم قد بينـوا أن كل من خالف الشريعـة في قوله وفعـله فهـو ليس منهم ، ولا من الشريعة فى شىء •

وأما ما روى عن الحلول والاتحـاد ووحدة الوجـود ، وبعض المصطلحات والألفـاظ التى تشوه الحركة الصوفية والتى تعتبـر من الشوائب التى ينبغى أن تخلص الحـركة الصوفية منها ، فاننا نقول ـ بعد ما تبين لنا نقـاء وصفاء هذه الحركة ـ : انه يبدو لى أن هناك ثلاثة احتمالات لورود هذه الألفاظ على ألسنة بعض الصوفية •

أولا : أن هذه الألفاظ قد وردت على ألسنة أناس قـد أصيبوا بلوثة فى عقـولهم أو مس من الجنون ، فلم يعودوا يميزون بين الصواب والخطـأ •

ثانيا : أن هذه الألفاظ قد وردت على ألسنة المندسين على الحركة الصـوفية بشكل خاص ، والشريعة الاسلامية بشكل عام • فالمجتمعات الاسلامية والمذاهب الاسلامية لم تخل فى عصر من العصور من أمثال هؤلاء الذين لا هم لهم الا تقويض دعائم الاسـلام ، فهم يتمسحون باسم الاسـلام فيظهرون الصلاح ويبطلون الفسـاد حتى يشوهوا سـمعة الاسلام والمسلمين ، وحتى يجـد أعـداء الاسلام فى أقوال

---

(٤٤) طبقـات الصـوفية ـ عبد الرحمن السلمى ـ ص ١٤١ ـ ط ليـدن ١٩٦٠ م •

هؤلاء وأفعالهم أدلة يسوقونها على حججهم الواهية . ويضاف الى هذا الاحتمال أيضا أننا لا نعفى ضعاف الايمان والمشعوذين من الوقوع فى هذه المنزلقات .

ثالثا : ثم ان صح أن هذه الألفاظ قد وردت على ألسنة بعض المتصوفة ، وهم فى حالة تفاهم وورعهم ، وتمام عقلهم فاننا لا ندرى ما هى المعانى التى تدل عليها هذه الألفاظ عندهم فلعلهم يقصدون معانى أخرى غير التى فهمناها من ظاهر هذه الألفاظ بحسب دلالتها التى نعرفها لاسيما وأننا لم نعثر على تفسير واضح لهذه الألفاظ قد ورد عند أحد الأئمة التقاة للحركة الصوفية .

فالمتصوفة يعبرون عن حالة وجدانية تقصر الألفاظ وتضيق العبارة عن التعبير عن وصفها والتعبير عنها ، فهم يصفون أحوالا معنوية لا يعرفها الا الخاصة ، بل خاصة الخاصة ، ولهذا لا يمكننا فهم مرادهم على الوجه الأكمل والمحدد ، وانما نقيسه نحن فحسب العرف والعادة وبحسب الأمور المحسوسة المألوفة لدينا ، والمتصوفة أنفسهم يقولون : « اذا اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة » .

ولعل فى هذا القول ما يقوى الاحتمال الثالث الذى ذهبنا اليه ، فهذا ابن تيمية ـ وهو خصم كبير للصوفية بوجه عام ، وشديد العداوة لهم ، لما لهم من جنوح ـ يبرىء ساحة بعضهم من تهمة القول بالاتحاد ، ويؤول كلامهم تأويلا صحيحا سليما . وقد جاء فى فتاواه قوله : « ليس

أحد من أهل المعرفة بالله يعتقد حلول الرب تعالى به أو بغيره من المخلوقات ولا اتحاده به ، وان سمع شيء من ذلك منقول عن بعض أكابر الشيوخ فكثير منه مكذوب ، اختلقه الأفاكون من الاتحادية المباحية الذين أضلهم الشيطان » (٤٥) .

ثم ان أئمة الحركة الصوفية ورجالها البارزين يستنكرون هذه الألوان من الالحاد ، فابن عربى يقول : « تعالى الله أن تحله الحوادث أو يحلها » . ولا يجوز لعارف أن يقول : « أنا الله » و « ما قال بالاتحاد غير أهل الالحاد » .

وله شعر يتضمن هذا الانكار وهو قوله :

ودع مقالة قوم قال عالمهم
بأنه بالاله الواحد اتحدا
الاتحاد محال لا يقول به
الا جهول به من عقله شردا
وعن حقيقته أو عن شريعته
فاعبد الهك لا تشرك به أحدا (٤٦)

ولقد فسر ابن تيمية بيت الحلاج الذى قتل من أجله وهو :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

تفسيرا علميا ، ورأى فيه ما لم يره ضعفاء النظر فى

---

(٤٥) مجموعة فتاوى ابن تيمية جـ ١١/٧٤ ، وحقائق عن التصوف ص ٥٥ ـ مطبعة كردستان العلمية ـ القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ .

(٤٦) الفتوحات المكية جـ ١ ص ٨٠ .

عصر الحلاج ، الذين رموه بالكفر ، وأغروا به المقتدر بالله بقتله فقال ابن تيمية : « انما أراد به الشاعر الاتحاد المعنوى ، كاتحاد أحد المحبين بالآخر الذى يحب أحدهما ما يحب الآخر ، ويبغض ما يبغضه ، ويقول مثل ما يقول ، ويفعل مثل ما يفعل ، وهذا تشابه وتماثل ، لا اتحاد العين بالعين ، اذا كان قد استغرق فى محبوبه ، حتى فنى به عن رؤية نفسه ، كقول الآخر :

غبت بك عنى فظننت أنك أنى

فهذه الموافقة هى الاتحاد السائغ [٤٧] .

واذا كان هذا دفاع خصم ، فان دفاع الصوفيين المؤمنين أوضح وأصرح وأقوى [٤٨] . وكان لكثير من الألفاظ التى توهم بهذا الجنوح تفسير وتأويل وشرح تؤيده اللغة والشريعة ومجازات العربية .

دكتور
على جميل مهنا
الأستاذ المشارك بكلية الآداب
جامعة الأزهر _ غزة

---

(٤٧) مجموعة رسائل ابن تيمية ص ٥٢ _ مطبعة المنار _ القاهرة سنة ١٣٤٩ هـ .

(٤٨) انظر رسالة وحدة الوجود لمصطفى كمال الشريف _ ص ٢٧ ، ومدارج السلوك لمحمد بنانى ، وحقائق عن التصوف لعبد القادر عيسى ص ٥٥٣ .